المحاضرة الثانية

النظم القرآني أبرز أعلامه وجهودهم في دراسة خصائصه

تمهيد: إن أبرز شيء في إعجاز القرآن هو ما يظهر فيه من الفصاحة والبلاغة والبيان ، وروعة المعاني ودقة انسجام الألفاظ في مبانيها ، وتنسيقها تنسيقاً يتناسب مع عذوبة الأسلوب والجودة في المعنى ، ثم إحكامها في الربط بحيث تستولي على مشاعر السامعين لهذا القرآن الكريم .

ويمكن لكل إنسان أن يستوعب الجمال في أسلوب الخطاب القرآني ويقف على الإعجاز البياني ؛ لأن القرآن في أسلوبه سلس العبارة واضح المعاني يخاطب العامة والخاصة من الناس والكل يجد فيه المتعة والجمال ويشعر بأن القرآن متميز في أسلوبه المتنوع الذي يثير المشاعر بما يتضمنه من استفهام تارة وأسلوب الإيجاز أحياناً وأسلوب الإطناب وأوامر ونواهي وما يرد فيه من قصص وأخبار للأمم السابقة وأيضاً تنوعه في أسلوب الخطاب حيث وجدنا فيه المتعة وقمة البيان .

إن الأسلوب في النص القرآني يمتاز بمسحة خلابة عجيبة ، تتجلى في النظم الصوتي ، وجودة السبك في ترابط كلماته وجمله وآياته وسوره إلى أن وصل إلى البراعة في تصريف القول وأفانين البلاغة ، فأعجز البلغاء وقطع أنفاس الموهوبين من الفصحاء ، وتلوين الخطاب في القرآن كان فناً من فنون إعجازه الأسلوبي أجمع عليه علماء اللغة وأهل البيان قديماً وحديثاً، قال تعالى : { **الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** } (هود:1) .

أولاً: جهود القدامى في دراسة الإعجاز

لقد تحدث معظم القدامى عن الإعجاز اللغوي في الأسلوب القرآني واعتبروه المعجزة الخالدة التي جاء بها القرآن وتحدى العرب وفرسان البلاغة ومن هؤلاء العلماء الآتي :

1- الإمام الخطابي (319-388هـ)

هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم ، الأديب اللغوي المحدّث ، كتب "بيان إعجاز القرآن ركّز فيه على الإعجاز البياني اللغوي البلاغي في القرآن ، حيث جعل أقسام الكلام البليغ ثلاثة كما يلي :

أ- البليغ الرصين الجزل، وهو أعلى طبقات الكلام بلاغة.

ب- الفصيح القريب السهل، وهو أوسط طبقات الكلام.

ج- الجائز الطلق الرسل، وهو أدنى وأقرب طبقات الكلام.

وهذه الأقسام الثلاثة متوفرة في أسلوب البلاغة القرآنية ووجودها مجتمعة في القرآن بدون تنافر أو تناقض، مظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم.

وقال رحمه الله : "إنما صار القرآن معجزاً ؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني"[1] .

2- الرماني (أبو الحسن علي بن عيسى 296-384هـ) مفسر وفيلسوف ورجل نحو معتزلي.

هو علي بن عيسى ، الأديب المعتزلي ألّف كتاباً في الإعجاز سماه "النكت في إعجاز القرآن حققه الدكتوران: محمد خلف الله، والدكتور محمد زغلول ونشراه مع كتابي الخطابي والجرجاني في كتاب واحد أسموه "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن" عام 1957م .

وقف الرماني في كتابه وقفة مطولة أمام الإعجاز البلاغي في النص القرآني وعرض فيه أقسام البلاغة ومثل لها بآيات من القرآن، وبدأ بتقسيم البلاغة إلى ثلاث طبقات:

أ- **أعلى طبقة** : وهي بلاغة القرآن المعجزة وهي خاصة به، لا يصلها كلام البشر مهما ارتقوا في أساليب البلاغة والبيان .

ب- أوسط طبقة : وهي ممكنة للناس، وهي كلام البلغاء والفصحاء .

ج- أدنى طبقة: وهي كلام عامة الناس .

فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن، وما كان دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس[2] .

3- الجرجاني عبد القاهر (400-471هـ). نحوي متكلم مؤسس علم البلاغة له أسرار البلاغة.

---

[1]- الخطابي : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، للرماني والخطابي والجرجاني، 86.

[2]- الرماني: النكت في إعجاز القرآن، ص 75.

هو عبد القاهر الجرجاني رائد في علم البلاغة القرآنية والنظم القرآني وأهم كتبه في هذا المجال " دلائل الإعجاز " انتصر في كتابه لقضية المعنى والنظم على قضية اللفظ ؛ لأنه كان يخشى أن يبطل الإعجاز إذا أصبح محصوراً في الألفاظ ، لأن ميدان اللفظ ضيق ولا يتسع للإعجاز أما ميدان النظم فهو فسيح يتسع له .

كما أنه انتصر لفكرة الإعجاز في القرآن وأثبتها بنظريات وآراء قوية ومقبولة ، وساند الانتصار لأهل السنة على المعتزلة.[1]

ملخص نظرية الجرجاني: "اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الموضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهِجت، فلا تزيغ، وتحفظ الرسوم التي رسمت، فلا تُخلّ بشيء منها، وذلك أنّا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في كل باب وفروعه"[2].

4- الباقلاني أبو بكر(338-402هـ) لقب: شيخ السنة ولسان الأمة، أشعري المذهب).

هو القاضي أبو بكر الباقلاني ألّف كتاباً مشهوراً أسماه " إعجاز القرآن " رداً على مطاعن الملاحدة في عصره ، وتضمن الكتاب أهم أفكاره عن فكرة الإعجاز في النص القرآني، وهي كالتالي :

أ- اعتبر القرآن الكريم المعجزة للنبي (ص) عبر الأجيال إلى يوم القيامة، وقال: إن تحدي الإنس والجن بهذا القرآن قائم إلى يوم الدين .

ب- إن القرآن معجز بأسلوبه وبلاغته ، وأنه تحدى العرب فعجزوا عن معارضته .

ج- وقال: إن أقلّ المعجز في القرآن هو أقصر سورة منه .

د- حصر وجوه الإعجاز في عشرة ، ذكر منها نظم القرآن وأسلوبه وبلاغته وتوسع في ذلك كثيراً ثم أوضح باقي الوجوه الأخرى لإعجاز القرآن[3].

خلاصة رأيه في الإعجاز البلاغي :

[1]-الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص 41.
[2]- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص81.
[3]- الباقلاني : إعجاز القرآن، ص192.

قال: إن أسلوب القرآن خارج عن الأساليب المعروفة ولم يستطع العرب مجاراة القرآن في الأسلوب الأدبي ، وأن القرآن أجاد في كل ما عرض من موضوعات ، وأن القرآن معجز للجن والإنس ، وأن أساليب البيان العربي وجدت في القرآن أعلى مستوى ، وأن كلمات القرآن وجمله متميزة وأسلوبه في الخطاب يعرفه الناس إذا وضع بين كلام البشر الشعري أو النثري ويكون حلياً وزينة وجواهر؛ لأنه كلام رب العالمين.[1]

ثانياً: دعاة الإعجاز البياني في العصر الحديث

1- الشيخ محمد رشيد رضا (1865-1935) من رواد الإصلاح في العصر الحديث.

تحدث الشيخ رضا عن الإعجاز أثناء تفسيره لآية التحدي في سورة البقرة ، ويرى أن التحدي بعشر سور كما جاء في سورة هود مقصود به التحدي بقصص وأخبار الأمم الماضية ، وعرض في تفسيره لأهم وجوه الإعجاز، وحصرها في إعجاز القرآن بأسلوبه ونظمه ، وبلاغته وبما فيه من علم الغيب ، وبما يشتمل عليه من علوم دينية وشرعية ، وبتحقيق مسائل كثيرة كانت مجهولة عن الناس (رضا : تفسير المنار ، 196/1) .

2- الرافعي مصطفى صادق (1880-1937).

يرى مصطفى صادق الرافعي أن الوجه الأساسي في الإعجاز هو "نظم القرآن" مع بعض الوجوه الأخرى للإعجاز ، وحصر مظاهر الإعجاز في ثلاثة أمور وهي كالتالي :

أ- الحروف وأصواتها ب- الكلمات وحروفها ج- الجمل والكلمات .

قال : بالإعجاز الموسيقي عند حديثه عن الحروف وأصواتها واعتبر سقوط حرف أو إبداله بغيره يسبب خللاً واضحاً ، وقال : إن حروف الكلمة متناسقة مع بلاغة النظم بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمد والغنة .

3- الدكتور محمد عبد الله دراز (1894-1958) مصري.

ألف كتابه "النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن" ، وهو من أهم الكتب العلمية في إعجاز القرآن وقسم الكتاب إلى قسمين :

[1]- الديب محمد السباعي: البيان في إعجاز القرآن، ص20.

الأول : تحديد القرآن .

ثانياً : بيان مصدر القرآن وهذا الأخير قسّمه إلى مراحل :

المرحلة الأولى : بيان أن القرآن لا يمكن أن يكون إيحاءً ذاتياً من الرسول عليه الصلاة والسلام.

المرحلة الثانية : ناقش الذين زعموا أن الرسول أخذ القرآن من مُعلّم وأبطل هذا التصور .

المرحلة الثالثة : ظروف الوحي وملابساته .

المرحلة الرابعة : البحث في جوهر القرآن نفسه وحقيقة مصدره .

ويرى الدكتور دراز : أن الإعجاز القرآني يكمن في ثلاث نوحي :

أ- الإعجاز اللغوي ويعتبره أظهر وجوه الإعجاز؛ لأنه هو الذي وقع به التحدي والقرآن عنده معجزة لغوية خالدة.

ب- الإعجاز العلمي وهو يتحدث عن إشارات علمية في الآيات القرآنية.

ج- الإعجاز التشريعي الإصلاحي الاجتماعي.

4- سيد قطب :

يرى أن الإعجاز في كل آيات القرآن الكريم وفي الآيات الأولى التي خلت من العلوم والتشريعات، ويرى أن الإعجاز في بيان القرآن وأسلوبه ونسقه البياني وتصويره الفني، وقال: إن تذوق الجمال الفني في القرآن مرَّ في ثلاث مراحل وهي كالتالي:

المرحلة الأولى: التذوق الفطري التي قام بها الصحابة حيث لم يعللوا ما كانوا يجدونه في أثر القرآن عليهم وتأثيره فيهم .

المرحلة الثانية : مرحلة إدراك بعض مواضع الجمال المتفرقة التي قام بها المفسرون والأدباء وأثنى على الإمام الزمخشري في لفتاته البيانية في الكشاف ، وعلى الجرجاني في نظريته النظم القرآني .

المرحلة الثالثة : وهي إدراك الخصائص العامة الموجدة للجمال الفني القرآني وأن السابقين لم يبينوها وأنها تكمن في التصوير الفني في الأسلوب القرآني (قطب: التصوير الفني ، 29–32).[1]

5– محمد سعيد رمضان البوطي:

في كتابه (من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله) وضح من خلاله ما ينطوي عليه هذا الكتاب من روعة البيان وإعجازه، ومدى تأثيره في مختلف العلوم العربية التي تزخر بها المكتبات اليوم مما لابد للأديب ودارس اللغة والمتخصص فيها من الوقوف عليه. والكتاب ينقسم بعد المقدمة والتمهيد إلى ثلاثة أقسام:[2]

القسم الأول ويتناول خلاصة من تاريخ القرآن، ويتضمن المباحث الآتية:

1–القرآن تعريفه وحقيقته. 2–نزول القرآن والحكمة من ذلك

3–أسباب النزول 4–كيفية جمع القرآن وكتابته

5–رسم القرآن 6–الأحرف السبعة

7–القراءات والقراء 8–المكي والمدني

9–التفسير : نشأته تطوره مذاهبه 10–المبهم والمتشابه

أما القسم الثاني فيتناول دراسة موجزة لمنهج القرآن وأسلوبه وتشمل هذه الدراسة الأبحاث الآتية:

1–أسلوب القرآن نظرة عامة ثم دراسة لخصائصه. 2–إعجاز القرآن بيانه دليله وجوهه.

3–موضوعات القرآن الكريم وطريقة عرضه لها. 4–التصوير في القرآن مظهره ووسائله.

5–القصة في القرآن أغراضها ومنهجها. 6–المنهج التربوي في القرآن الكريم.

7–النزعة الإنسانية في القرآن. 8–هل من الممكن ترجمة القرآن؟؟

---

[1]– هذه المحاضرة مفتبسة عن بحث ل : عصام العبد زهد، مقدم إلى مؤتمر النص بين التحليل والتأويل والتلقي (المنعقد 4–6 أبريل 2006م)، ط1، 2006.

[2]– ينظر، عمار ساسي، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، دراسة نظرية للإعجاز في الآيات المحكمات، دار المعارف، البليدة، ط3، 2003، ص 53 وما بعدها.

أما القسم الثالث فيتناول فيه نماذج من النصوص القرآنية في بعض مواضعه ويكون هذا القسم تطبيقا للدراسات النظرية التي جاءت في السم الثاني.

والقسم الذي يهمنا في هذا الكتاب على الرغم من أهمية كل أبوابه وفصوله هو مبحث (إعجاز القرآن بيانه ودليله ووجوهه) يعرض في أوله تعريفا للإعجاز القرآني وينظر إليه من وجهين:

الوجه الأول: وهو أن القرآن قد سما في علوه إلى شأو بعيد بحيث يعجز القدرة البشرية في الإتيان بمثله، سواء كان هذا العلو في بلاغته أو تشريعه أو مغيباته.

الوجه الثاني: وهو أن القرآن كتاب صرف الله قدرات عباده وسلب همتهم وحبس ألسنتهم عن الإتيان بمثله، وتجد الدكتور البوطي يؤيد الوجه الأول في التعريف، وينكر رافضا الوجه الثاني، ويؤكد ذلك برأي وقول الإمام الباقلاني في مؤلفه إعجاز القرآن.

ثم ينتقل إلى عنصر ثان وهو دليل الإعجاز ويبدؤه بسؤال وجيه وهو من أين ثبت أن القرآن معجز؟؟ وما الدليل على أنه ينطوي على ما يقصر طوق البشر عنه؟؟ ثم يتعرض إلى الجواب عن هذين السؤالين، ويعرض أمثلة من التاريخ الأول انطلاقا من مسيلمة الكذاب وانتهاء بالمعري مبينا كيف ادّعوا وحاولوا فعجزوا.ثم يقول إنما المقصود بعجز الناس عن الإتيان بالقرآن، أو أن يأتوا بكلام ما أي كان أسلوبه ومنهجه وطريقته بشرط أن يكون في مستوى القرآن بلاغة وبيانا، وبهذا المعنى كان الأدباء ولا يزالون يتبارون ويتساجلون في النثر والنظم، وبهذا المعنى تمكن المفاضلة والمقارنة بين الشعراء والكتاب.[1]

ثم ينتقل إلى عنصر ثالث وهو بيان وجوه الإعجاز في القرآن الكريم فيقول: "القرآن معجز من وجوه مختلفة، بعضها خاص بالعرب الذين درسوا اللغة العربية، وتذوقوا بلاغتها، وبعضها الآخر عام يدركه العقلاء من الناس كلهم، ثم يتناول بالشرح والتفصيل الخاص والعام، في هذا العنصر ثم ينتقل إلى العنصر الموالي من المبحث وهو مظاهر إعجازه اللغوي وبيانه كالآتي:

[1]- البوطي: من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله ، ص132.

المظهر الأول: الخصائص المتعلقة بأسلوبه:

-أنه يجري على نسق بديع خارج من المعروف والمألوف من نظام جميع كلام العرب.

-إن التعبير القرآني يظل جاريا على مستوى رفيع واحد من النمو المتناهي في جمال اللفظ ورقة الصياغة وروعة التعبير رغم تنقله بين الأبحاث والموضوعات

-إن ألفاظه مصوغة بشكل غريب، وعلى هيئة عجيبة بحيث تصلح أن تكون خطابا للناس جميعا على اختلاف عقولهم وتفكيرهم وثقافتهم.

المظهر الثاني: خاص بالكلمة القرآنية

المظهر الثالث: الجملة وصياغتها وللإعجاز فيها وجوه، وفيه يقول: "فالجملة في القرآن لا بد أن نجدها دائما مؤلفة من كلمات وحروف وأصوات، يستريح لتآلفها السمع والصوت والنطق، ويتكون من نسقها نظام جميل تنطوي على إيقاع رائع ما كان ليتم لو نقصت من الجملة كلمة أو حرف لأو اختلف ترتيب ما بينها بشكل من الأشكال"[1]. ثم يعرض أدلة قرآنية من هذا المظهر.

المظهر الرابع: ما نجده في كثير من آياته من جلال الربوبية وكبرياء الإلوهية وذلك بغض النظر عن المعنى الذي يؤديه اللفظ. وهذا مما لا يقوى أي إنسان على اختلافه في أي صنف من أصناف المعاني والكلام، وهو من أهم مظاهر إعجاز القرآن.

[1]- المرجع السابق، ص 133.